لماذا؟ وكيف؟

فى لمسات الحنان الأخيرة قالت ليلى بما يشبه الإلحاح الهادئ حاول أن تكمل مذكراتك. ولما شعرت بترددي، استعادت معى حكاية انغماسى فى كتابة تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ثم توقفى بسبب انشغالات عديدة عند عام ١٩٥٧.. بعد أن أكملت المسافة من ١٨٩٤ وحتى ١٩٥٧ واستغرقت من وقتى وجهدى وعزلتى عن العالم سنوات عدة، فإذا بالبعض الباحث عن أى مأخذ يأتى ليؤكد أننى أخشى من المزيد فى الكتابة حتى لا اقترب من قرارات حل التنظيمات الشيوعية لكى لا أسجل على نفسى حماسا للحل "ورغم أننى رفضت أصلا الحضور فى الاجتماع الشهير الذى اتخذ قرار "إنهاء الوجود التنظيمى للحزب؛ رافضا أن يكون اسمى ضمن من فعلوها. ورغم الوثيقة الأصلية لهذا القرار وعليها أسماء

الحاضرين كانت تحت يدي. ومع ذلك ترك البعض كل الجهد الذى بذلته، وكل التاريخ الذى دونته عبر سبع كتب ضمت آلاف الوثائق النادرة التى بذلت فى استنقاذها من الضياع جهدا لا أريد أخوض فيه حتى لا أتهم بالمبالغة، تركوا كل ذلك وتمسكوا باختراع وهمى حول خوفى من التطرق لفترة تنتهى بقرار إنهاء الوجود التنظيمي". وفيما استشعر غيظا عدت إلى الانغماس الممتع والمرير لاستكمل وأصل إلى ما تصور البعض أننى أخشاه فإذا به يمايز بين موقفى الشخصى وبين مواقف الآخرين. ولا يمكن بالطبع أن أنسب استمرارى لإنجاز مشروع اعتبرته مهمة حياتى إلى مجرد الغيظ، ولكن لنقل الحافز أو أن شئت قلت "الفيروس" الكامن والذى يلهب الرغبة فى استكمال موسوعة أصبحت تقريبا المرجع الأساسى لتاريخ الحركة الشيوعية المصرية" سواء للباحثين المصريين أو العرب أو حتى الدارسين من عديد من بلدان العالم. وهو "فيروس" محبب يجتاحنى حتى فى أحلامى أو تأملاتى أو دردشاتى ليدفعنى إلى أن أترك أى شيء وكل شيء كى أغرق نفسى فى بحار العطر التاريخى الذى أسعى نحو استكماله. وهو ذات "الفيروس" الجميل والممتع الذى لاحقنى بعد أن أكملت موسوعتى عن تاريخ الحركة الشيوعية" (خمسة مجلدات) كى أبدأ الكتابة عن جماعة الإخوان وعن قوى التأسلم السياسى لأنجز عددا من الكتب وآخرها كتاب موسوعى (١٠٠٠ صفحة) بعنوان "جماعة الإخوان.. المسيرة والمصير". كل ذلك جال بخاطرى فى جلسة هادئة، وحانية وهى تحاول إقناعى

بأننى توقفت بمذكرات عند زمن حرج.. وأننى أحتاج أن أكمل حتى أوضح أمورا خافية كنت أهمس بها إليها ثم قالت لتحفزنى "ممكن يقولوا إنك خايف من الكلام على علاقتك بالمجلس العسكرى وما كان فيها من مشادات قد تغضبهم الآن والرئيس السيسى فى السلطة". واتفقنا.. على أن أبدأ فى استكمال ما لم يكتمل من ذكريات.. لكن تداعيات المرض المتعجلة والتى لاحقتنى قبل أن تلاحقها أنستنا معا اتفاقنا. لكن الاتفاق يظل محلقا، وقادرا على مطاردتى وكأننى أشعر بها إذ تزورنى فى أحلامى أنها تأتى لمجرد أن تذكرنى دون لوم أو غضب.

وكان أن بدأت..

* * *

ولعلى لست بحاجة إلى أن أعود لأتذكر مع القارئ التعريف الإغريقى لكلمة "استوريا" (التاريخ) والذى يقول "هو البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة التى وقعت فى الماضي" ومن ثم فإننى سألتزم كما التزمت فى كل كتاباتى عن التاريخ "بالبحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة" فقط. كذلك سأحاول الالتزام الصارم بتحذير مشيلييه أستاذ أساتذة فلسفة التاريخ والذى يقول "يتكون التاريخ من نصفين أحدهما جميل وهو الحكايات والدردشات والتمنيات، والآخر قبيح وهو الحقائق". وكما اعتدت سألتزم بالحقائق- كما أراها أنا- حتى لو تبدت صادمة أو غير متخيلة.

والآن سأبدأ .. مشحونا بطاقة الفيروس الخبيئ، وبنسيم عطر ليلى التى طلبت، وبالإحساس بالخوف من أن يأتى زمن أو حالة يكون قد فات فيها الأوان.

وفى لحظة ارتباك مليئة بالالتباس والارتباك والادعاءات والمزاعم.. قررت أن أنجو بنفسى .. لأكتب.

وكتبت.

بأمل أن يكون ما سيأتى مستحقا للقراءة.

وأن يكون إهدائى لهذه الصفحات

.. إلى ليلي.. وإلى ابننا خالد وابنتنا غادة..
وأحفادنا الأربعة نيفين ورامى خالد رفعت.. ويوسف وليلى حسام فهمى.. فلهم كل ما هو ممكن من محبة.